# الاختلاف والمكان

ليندا ماكدويل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

إن فرصة التأمل - في المطبوعات - في الحياة الأكاديمية ، واهتمامات البحث ، وانشغالاته ، تُشعر المرء بالإطراء والخوف في آنٍ واحد . أدركتُ وأنا أجلس لأتأمل هذا التعليق أنني كنتُ أعمل في الحياة الأكاديمية بشكلٍ متواصل لما يقارب ٣٠ عامًا ، ولذا فأنا أدخل الربع الأخير من مسيرتي المهنية . أنا ممثلة لذلك الجيل المحظوظ من النساء البريطانيات ، اللواتي وُلدن في سنوات ما بعد الحرب ، وحصلن على تعليم جيد ومجاني من خلال نظام المدارس الثانوية الذي كان قائمًا في إنجلترا وويلز في أواخر الستينيات ، ثم حصلن على دعم من خلال الجامعة بفضل ما يبدو الآن سخاءً يكاد يكون لا يُصدق من الدولة ، ملتزمةً بالدعم المالي للطلاب في التعليم العالي - ولكن بالطبع - قلة قليلة فقط .

عندما التحقتُ بالجامعة عام ١٩٦٨، لم تحظَ سوى ٨٪ من النساء في فئتي العمرية بالفرصة نفسها . إنها علامة تقدم مهمة أن أكثر من ٤٠٪ من جميع الفئات العمرية ذات الصلة في بريطانيا يلتحقن الآن بالتعليم العالي ، حيث يفوق عدد الشابات عدد الشباب ، إن لم يكن أكثر ، على الرغم من أن تحميل الأفراد وأسرهم للتكاليف أمر مؤسف . لكن هؤلاء النساء في سني ، على الرغم من قلة عددهن نسبيًا ، أثبتن أنهن يُمثلن أهمية كبيرة ، على الأقل فيما يتعلق بتطور الموجة الثانية من الحركة النسائية والنظرية النسوية والدراسات العلمية . وهذا هو محور بحثي ، لأن عملي ، قبل كل شيء ، تأثر بالازدهار الهائل والمثير للأعمال المستوحاة من النسوية داخل الجغرافيا وخارجها ، ودخل ضمنها .

بدأت حياتي الأكاديمية كجغرافية حضرية ، وتحولت ببطء إلى جغرافية اقتصادية ، على الرغم من أنني ، كما سأجادل لاحقًا ، وكما أصرّت المنظرات النسويات منذ فترة طويلة ، فإن فصل العمل عن المنزل ، والحضري عن الاقتصادي ، أو الحياة اليومية عن الحياة العملية ، غير مُرضٍ من الناحية التحليلية ، وتتحدىه الروابط الواضحة التي تُحافظ عليه ا، في المقام الأول ، من خلال العمل المنزلي للمرأة . إن التركيز على الروابط بين ما كان يُعرف عمومًا بمجالات منفصلة من قِبل الجغرافيين هو الخيط الرابط في أعمالي المنشورة على مدى عقود . قبل أن أستكشف هذه الروابط واهتماماتي المتغيرة ، أود أولًا التأكيد على أن العمل الأكاديمي هو دائمًا نتاج التعاون .

حتى تلك الأوراق والكتب المنسوبة إلى مؤلف واحد تقع في نقاشات أكاديمية وسياسية بين باحثين ومنظرين وممارسين قريبين وبعيدين ، وهو ما يُسهّله البريد الإلكتروني والظهور الهائل للمجلات الجديدة على الإنترنت بشكل كبير الآن . لقد كنت محظوظًة بالعمل مع مجموعة كبيرة من الجغرافيات النسويات ، والتأثر بمحادثاتهن وتعاونهن معهن ، وغيرهن ممن يعملن ضمن نهج نظري اجتماعي نقدي يساري إلى حد كبير ، منذ أواخر السبعينيات فصاعدًا . في الدائرة المباشرة للجغرافيين ، في بدايات العمل النسوي في تخصصنا ، كانت هناك جو فورد ، وجين لويس ، وجاكي تيفرز ، وإليانور كوفمان ، وصوفي بولبي في المملكة المتحدة ، وداماريس روز ، والراحلة سوزان ماكنزي التي نفتقدها كثيرًا في كندا .

انتشرت هذه الحوارات جزئيًا من خلال إنشاء شاركتُ في فريق عمل المرأة والجغرافيا في المعهد الدولي للتخطيط (IBG) (الذي سُمّي لاحقًا "مجموعة المرأة والجغرافيا" ؛ ينظر: مجموعة دراسة المرأة

والجغرافيا، 1984؛ 1997) ، ليشمل ، من بين آخرين ، ميليسا جيلبرت، وسوزان هالفورد ، وميشيل لو، وجيل فالنتين . وقد أثرى جميع هؤلاء الباحثات فهمي للقضايا الحضرية ، كما فعلت مجموعة أوسع من النسويات ، بمن فيهن ماري إيفانز ، ونانيكي ريدكليفت ، وكلير أنغيرسون ، اللتين كانتا آنذاك في جامعة كينت في كانتربري ، حيث بدأتُ مسيرتي الأكاديمية . في الواقع ، كانت إحدى أوائل الأوراق البحثية النسوية الصريحة التي أنتجتها (ماكدويل، 1983) مستمدة من ورقة بحثية قُدّمت في مؤتمر في جامعة كينت في كانتربري . أتذكر ذلك جيدًا لأنني اكتشفتُ للتو أنني حامل . والحمل والولادة ورعاية الأطفال هي أحداث أخرى مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بكتابتي وتدريسي ، مما أثر ليس فقط على الوقت المتاح ، بل على فهمي للتأثير المُقيّد للبيئة العمرانية والفصل المكاني لمختلف أنواع الأنشطة الحضرية ، بالإضافة إلى التمايز بين الجنسين في مكان العمل .

اكتسبت القضايا المتعلقة بتسوية النسيج العمراني وتجميع الخدمات المنفصلة زمانًا ومكانًا ، والتي تناولتها أكاديميًا في تلك الورقة البحثية عام ١٩٨٣، معنىً وأهميةً جديدين بالنسبة لي مع انتقالي من شابة مهنية متنقلة إلى أم مثقلة بطفلين ، أو بالأحرى ، مع مساعدة العديد من الآخرين ، حاولتُ الجمع بين الاثنين ، مُكافحةً طغيان البيئة العمرانية والأنماط اليومية لجداول الجامعة . أعدتُ قراءة أعمال هاجرستراند حول قيود الزمان والمكان بفهم جديد . لم أكن وحدي في الجمع بين العمل والأمومة ، إذ شاركت العديد من الصديقات النسويات في المزيج نفسه مما كان يُشار إليه آنذاك ، حتى في ثمانينيات القرن الماضي ، بـ"الأدوار المزدوجة للمرأة" .

وكما لوحظ كثيرًا في كتابات الموجة النسوية الثانية ، فإن الاهتمامات المتغيرة لهذا الخطاب عكست مسار حياتنا / حياتهم ، حيث تحول التركيز من نقاش العمل المنزلي ، مرورًا بالولادة وتربية الأطفال ، إلى "التغيير" والشيخوخة . تستند أحدث أوراقي البحثية (ماكدويل، ٢٠٠٣أ؛ ٢٠٠٤) إلى العمل الميداني الذي قمتُ به مع نساء مسنات ، وُلِدن تقريبًا في الفترة نفسها التي وُلِدَت فيها والدتي . في السنوات الفاصلة ، أجريتُ دراسةً على نساء ورجال الطبقة المتوسطة الذين يعملون في بيئةٍ ضاغطة - في مجال الخدمات المصرفية التجارية (ماكدويل، ١٩٩٧) ، وليس في الجامعات ، ولكن هناك أوجه تشابه (وهي نقطةٌ أشارت إليها دورين ماسي ، ١٩٩٥، أيضًا في عملها على الصناعات عالية التقنية) - ومؤخرًا على البناء الاجتماعي للهويات الذكورية بين الشباب المتأثرين بتراجع التصنيع والذين يواجهون حياةً عمليةً في مهنٍ في قطاع الخدمات الآخذ في التأنيث (ماكدويل، ٢٠٠٣ب).

في كلا العملين ، هناك روابط واضحة وانعكاسات لمسيرتي المهنية كعاملةٍ محترفةٍ وأمٍّ لابن . من دواعي سروري ، بالطبع ، أن أكون منظّرة نسوية أكاديمية ، أن أتمكن من الافادة من التجارب الشخصية أثناء تحليل البناء الاجتماعي والمكاني للهويات الجندرية . ومع ذلك ، فإن هذه القوة بحد ذاتها تُعدّ نقطة ضعف ، حيث واجه النقاش المرير في منتصف الثمانينيات حول التركيز الجنسي المغاير للطبقة المتوسطة البيضاء في كل من المطالب النظرية والسياسية للحركة النسائية تحديًا من قِبل النساء ذوات البشرة الملونة والنزعة الانفصالية للمثليات . طوال ذلك العقد ، حيث تطلب التنوع ، بدلاً من القواسم المشتركة في حياة النساء ، اهتمامًا نظريًا وتجريبيًا ، تم تحدي سلطة وحق النسويات الأكاديميات ، ومعظمهن من البيض والطبقة المتوسطة ، في التحدث باسم الآخرين .

جزئيًا كرد فعل على هذا الاعتراف بالتنوع ، ولكن أيضًا مرتبطًا بتحولات نظرية أوسع ، خلال العشرين عامًا أو نحو ذلك منذ أن بدأتُ بنشر أعمالي النسوية ، تغيرت كل من النظرية النسوية والحضرية ، وتوسعت ، وتطورت بطرق عديدة (ينظر على سبيل المثال فينشر وجاكوبس، 1998) . في أوائل الثمانينيات، على سبيل المثال ، بدأت النظرية الحضرية في الظهور مما يبدو الآن قيدًا مقيدًا لا داعي له للبحث عن

جوهرها . هدفهم النظري ، متأثرين بالماركسية الألتوسيرية كما فسرها مانويل كاستيلز (1978) ، عرّف العديد من الجغرافيين وعلماء الاجتماع موضوع تحليلهم بأنه توفير سلع وخدمات الاستهلاك الجماعي ، والتي كانت تُعد آنذاك ، قبل أن تُظهر التاتشرية والريغانية خطئنا ، أساسيةً لصيانة المدن وإعادة إنتاجها . أما المنظرات النسويات ، فبنظرة نظرية مماثلة ، كنّ يؤكدن في الوقت نفسه على ضرورة العمل المنزلي في صيانة الرجال والأطفال والحياة اليومية والنظام الرأسمالي وإعادة إنتاجهما ، قبل أن يُنهي ظهور الوجبات السريعة وصالونات التدليك وخدمات كيّ القمصان وحانات العزاب هذه الحجة أيضًا (إهرينرايش، 1984؛ ماكدويل، 1991).

علاوة على ذلك ، أظهر تزايد تنقل رأس المال الدولي أن إعادة إنتاج أسر معينة من الطبقة العاملة في أماكن محددة لم يكن محل اهتمام يُذكر . ومع ذلك ، كان هذا التركيز المشترك على خدمات الصيانة الجماعية والمنزلية مثمرًا في ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن معظم محللي المدن المشهورين في ذلك العصر لم يلاحظوا ذلك ، إلا أن دور المرأة كمقدم رئيسي لكلا النوعين من الخدمات - سواء كموظفات في خدمات الحكومة المركزية والمحلية ، أو كربات بيوت وأمهات - في ملايين المنازل الفردية - هو ما حافظ على استمرارية المدن . ومع ذلك ، طوال تلك السنوات ، تم تجاهل الحجج النسوية حول الترابطات والتعقيد بشكل عام في تخصصنا . ولكن يمكن القول أيضًا إن العلوم الاجتماعية الأخرى ، بدورها ، تجاهلت أهمية الفضاء والمكان في فهم طبيعة وتوزيع الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

لا يصمد أيٌّ من هذين الادعاءين اليوم . فقد شهدنا طفرةً مثيرةً في العمل في مجال العلوم الاجتماعية ، مُركِّزةً على أهمية الاختلاف المكاني وتكوينه ضمن نطاقٍ واسعٍ من المقاييس المكانية المختلفة وعبرها : وهي نقطةٌ سأعود إليها بعد قليل . أودّ أولًا أن أعود إلى وجهة نظري حول أهمية التنوع بالعودة إلى تلك الورقة البحثية الصادرة عام ١٩٨٣ حول التقسيم الجندري للمساحة الحضرية . تكمن إحدى أبرز علامات العصر الذي كُتبت فيه تلك الورقة في تركيزها المُفرِط على "النساء" . هنا، تغيّرت كلٌّ من النظرية النسوية والدراسات الحضرية . إن الأعمال الأحدث التي تناولت التنوع الغني للحياة الحضرية وتجارب النساء من مختلف الخلفيات الطبقية والأصول العرقية والقومية والهويات الجنسية والقدرات والأعمار والظروف المنزلية ، قد انغمست في هذا المصطلح المفرد . أعتقد أن التركيز كان على "النساء" ، ليس بسبب الجهل - كمجموعة غنية من الأعمال الاجتماعية والتاريخية للنسويات ، وكذلك ، بالطبع ، ذلك التقليد الجغرافي الطويل حول الفصل السكني والمدينة ، والذي أوضح تمامًا أن المدينة كانت ساحة للتنوع الكبير - ولكن لأن الأدوات النظرية لربط هذا الاعتراف بتحليل جغرافي نسوي صريح لم تكن قد طُورت بعد .

وكما كتبتُ في أوائل الثمانينيات ، فقد أثر خطاب فريد حول اضطهاد المرأة وضرورة المساواة في المعاملة على عملنا . لم يكن نقاش "المساواة / الاختلاف" (فيليبس، ١٩٨٧) ، الذي يندرج الآن ضمن نقاش أوسع حول أهمية إعادة التوزيع والاعتراف في مطالبات المساواة (فريزر، ١٩٩٧) ، ولا التحول في التركيز نحو التنوع في النسوية وخصوصية المكان في الجغرافيا ، قد تطور بشكل جيد بعد ، حيث كانت التقاليد النظرية القديمة التي تُشدد على الانتظامات ، بل وحتى البحث عن قوانين مكانية ، أو على الأقل عمليات مكانية صريحة ، ما تزال واضحة . وهكذا ، تضمنت ورقتي البحثية لعام ١٩٨٣ انتقادًا للتحليل المكاني ، وكذلك ، كما أشرتُ سابقًا ، موضعه ضمن نهج مادي . ومع ذلك ، كانت الحجج المتعلقة بالافتراضات الأسرية والجنسانية التي تبلورت في الشكل الحضري مهمة وأثرت على مجموعة غنية من الدراسات التجريبية التي تحلل ، على سبيل المثال ، الروابط بين الأعداد المتزايدة من النساء العازبات والأمهات الوحيدات والأسر ذات المهنتين والتحديث الحضري : ليس مجرد "فجوة إيجار" ولا خيار نمط حياة ، بل استجابة لتغير وضع المرأة في المدن المعاصرة (ينظر على سبيل المثال بوندي، ١٩٩١).

كما استندت مجموعة موازية من التحليلات حول الروابط بين الشكل الحضري والجنسانية إلى التحليلات السابقة للبنية الحضرية ووسّعتها (ينظر على سبيل المثال فالنتاين ، ١٩٩٣). ربما كان أحد أهم التحولات في العمل النسوي حول الروابط بين النوع الاجتماعي والشكل الحضري ، بالإضافة إلى التوجه نحو تحليل دور مؤسسات الدولة كعناصر في اضطهاد المرأة ، هو الاعتراف المتزايد بالتناقض والازدواجية وتعدد حيوات النساء وجغرافياتهن (مجموعة دراسة المرأة والجغرافيا، 1997؛ ماكدويل، 1999) . ربما كانت الموجة الثانية المبكرة من حركة النساء ، بالنظر إلى الماضي ، صارمة وجادة في نظرياتها الأولية حول ، على سبيل المثال ، نظرية قيمة العمل وعلاقتها بالعمل المنزلي أو إصرارها على الطبيعة القمعية للزواج والأسرة النووية .

وهكذا ، فإن ما غاب عن بحثي هو أي وعي بالدور المتناقض للمنزل والأسرة في حياة العديد من النساء ، كمكان للعمل الجاد وعدم المساواة بلا شك ، ولكن أيضًا كمكان للحب والفرح ، ومكان للراحة والاستجمام ، بالإضافة إلى الاحترام والمتعة . في حين كتبت النسويات من جيلي باستخفاف عن النساء اللواتي "ينفضن الغبار عن حياتهن" أو عن وعيهن الزائف إذا وعدن بالطاعة عند الزواج وتكريم الرجل من خلال العمل بدون أجر في منزله ، فقد نسينا أن المنزل هو أيضًا مكان خاص للألفة ، كما ذكّرتنا بيل هوكس (1991) ، ملاذ لبعض أكثر النساء استغلالًا ، سواء من الطبقة العاملة أو من أفراد الأقلية السكانية ، ومكان يمكن من خلاله تنظيم الاحتجاج السياسي ومقاومة معايير ما أسمته هوكس "النظام الأبوي الأبيض المغاير".

وهكذا ، أصرت جين همفريز (1977)، في ورقة بحثية مبكرة ومثيرة للجدل حول الحياة المنزلية لنساء الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر، والتي لاقت استحسانًا عدائيًا ، على العقلانية والدعم المتبادل الكامنين وراء التقسيم التقليدي للعمل بين الجنسين في أسر الطبقة العاملة ، بالإضافة إلى أساسه القائم على استغلال الإناث . وقد لاقى تحليلها استحسانًا . أما التأكيدات العامة في ورقتي البحثية ، فتبدو الآن أكثر تحديدًا : فمطالب نساء الطبقة المتوسطة البيض بالمساواة في مكان العمل وفي المنزل تلوح في الأفق ، ولكنها لم تُستكشف بعد في خلفيتهن . كما تعكس ورقتي البحثية التركيز على الظروف المادية التي كانت تهيمن آنذاك على التنظير النسوي .

وبعد عقدين من الزمن ، وبينما كنت أكتب ورقة بحثية جديدة عن المدينة لكتاب عن النظرية النسوية (ماكدويل، 2003ج) ، أدهشني تركيزي الحالي على قضايا المعنى والتمثيل ، بالإضافة إلى اهتمامي المتزايد بأهمية المقاييس المكانية المختلفة في البناء الاجتماعي للمعنى . في الأعمال الحديثة حول المدن والنظريات النسوية حول الفضاء الحضري ، ينتقل التركيز إلى أعلى وأسفل المقاييس المكانية ، بالإضافة إلى التأكيد على ترابطها . نُدرك الآن أن المكان ، المدينة ، هو موضع في شبكة من العمليات الاجتماعية المكانية المترابطة ، حيث يتشكل "المحلي" و"العالمي" ، وأي مقياس بينهما ، بشكل متبادل ، كما أصرت دورين ماسي (1984). لقد كنت محظوظة بالعمل معها في الجامعة المفتوحة لمدة عقد من الزمان ، وكان لتحليلها للتقسيمات المكانية للعمل وتكوين الفضاء والمكان والمقياس تأثير دائم ليس فقط على عملي الخاص ، بل على التخصص بأكمله.

وهكذا ، فإن العمل النسوي الحالي في المدينة وحولها ، بما في ذلك عملي الخاص ، قد يناقش ، على سبيل المثال ، معنى "المنزل" على أصغر مقياس مكاني لتخطيطات الغرف داخل المسكن ، بالإضافة إلى معالجة الروابط بين "الوطن" والأمة والبناءات المثالية لنسخة معينة من الأنوثة القومية ، التي تنعكس في كل من الأساطير الوطنية وفي الحياة اليومية في المنزل . في هذا العمل الحديث ، الذي يُتخيل فيه صيغ بديلة للمنزل ، ويُبنى ، ويُربط بالمكان والإقليم بطرق مختلفة ، بالإضافة إلى مواجهته ومقاومته، يُستعان في التحليلات بمجموعة أوسع بكثير من المصادر مما كان شائعًا قبل 20 عامًا . وعلى غرار "التحول الثقافي" الأوسع في العلوم الاجتماعية ، تُركز الجغرافيات النسويات ، يُركز هذا الكتاب الآن بشكل أكبر على مسائل

المعنى والتمثيل ، بالإضافة إلى الاعتماد بشكل أكبر على المصادر الفنية والأدبية في استكشاف الروابط بين الأنوثة والحضرية ، وفي المعاني الجندرية للمساحة الحضرية ، وكذلك في التجارب المعيشية للنساء ، وفي تحليل الروابط بين التفاوتات المادية والمعنى الثقافي للاختلاف في فهم الانقسامات الجندرية التي ما تزال قائمة.

وقد شهد هذا العمل تضافرًا مثمرًا لجهود الجغرافيات النسويات والفلاسفة الاجتماعيين . هنا أفكر في التأثير الأخير للمنظرتين الأمريكيتين إيريس يونغ (1990) ونانسي فريزر (1997) على تحليلاتي وتحليلات الآخرين للطبيعة المتغيرة لعدم المساواة والاختلاف ، بالإضافة إلى تحليل جوديث بتلر (1990؛ 1993) المؤثر للجندر كأداء ، وربما مؤخرًا توسع مارثا نوسباوم (2000) لمفهوم أمارتيا سين للقدرات والإمكانات كوسيلة لتجاوز النقاش المعقد حول العدالة الاجتماعية والمساواة في المشهد النظري لما بعد الحداثة . كانت السنوات القليلة الماضية فترةً شاقةً ، لكنها مثمرة للغاية في تطور الفكر النسوي النقدي . كما أنها بدأت تصبح فترةً مثمرة للغاية في التنظير الحضري .

يبدو لي أن أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات كانتا ربما حقبةً فارقةً في التنظير الحضري بشكل عام ، وفي العمل الجغرافي النسوي حول المدينة ، على الرغم من العمل المهم بلا شك الذي بُذل في رسم خرائط وقياس مدى الاختلافات في فرص وحياة النساء عن الرجال في مدنٍ معينة ، ويرجع ذلك أساسًا ، في رأيي ، إلى أن السؤال المُحيّر حول كيفية تعريف "الحضري" ظل يُؤرق العديد من جغرافيي المدن . ما كان مثيرًا للاهتمام في العمل الأخير - ومن المهم بالتأكيد أن معظم المنظرين يتحدثون الآن عن "المدن" بدلاً من الحضري - هو التركيز على الترابطات العالمية ، على المدن كعناقيد وشبكات ومساحات تدفق ، حيث تُشكل الشعوب الشتاتية حياةً جديدة ، ولكنها أيضًا تحافظ على الروابط وتتواصل بطرق جديدة بين أماكن مختلفة في أنحاء العالم .

وكما أصر عالم الاجتماع ستيوارت هول (1990) والمنظرة النسوية تشاندرا تالباد موهانتي (1991؛ 2003) على أن العالم الثالث أصبح الآن جزءًا من العالم الأول بالنسبة للنساء المهاجرات ، مما أدى إلى تغيير فهم الانقسامات والروابط المكانية ، وكذلك حياة الأفراد . تجري الآن أعمالٌ جديدة حول الهوية ، وعمل المرأة بأجرٍ أو بدون أجر، والعمل الرسمي وغير الرسمي ، والعمل المنزلي المُسلَّع ، والحركات الفنية والثقافية الأخرى في المدن العالمية ، والمقاومة السياسية في المدن ، متجاوزةً ما كان يُعد سابقًا عملياتٍ وأنماطًا "حضرية" ، مانعةً الفروقات بين الجغرافيا الحضرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ومُضيفةً إلى العمل المتعلق بالمدن منطقًا جديدًا وموجةً كبيرةً من الحماس .

إنَّ المشاركة في هذه الموجة الجديدة والمثيرة تُمثِّل متعةً بالطريقة نفسها التي كانت بها المشاركة في الازدهار المبكر للعمل الجغرافي النسوي متعةً وامتيازًا . يبدو لي أن النظرية النسوية ، بكل تنوعها وتعددها الغني ، قد انبثقت من عزلة فئة أو تخصص فرعي منفصل "خارج المشروع" (كريستوفرسون، 1989) ، وهي الآن جزء أساسي من التحليلات الجغرافية السائدة.